بروز الأقنعة وانحسار الوجوه

في الفضاء العموميّ لِـ "كتاب الوجوه"[1]

د. مسلم محاميد*

مدخل:

إنّ تشكُّل **الفضاء العموميّ** -لا كمصطلح اجتماعيّ فحسب، بل كمِساحة افتراضيّة ترتكز على مفاهيمَ شبه موحّدة، تدور في فلك **الاتّصال أو التواصل**، أو تصبّ في نهر التعارف الاجتماعيّ بكلّ أشكاله الاقتصاديّة والعلميّة والعمليّة والفكريّة بل والعاطفيّة، وحتّى إذا شئنا الفلسفيّة- هذا التشكّل لم يؤدِّ إلى ولادة شكل جديد من أشكال فهم[2] **الاتّصال والتواصل**، بل إلى أنماط **اتّصاليّة وتواصليّة** مكتَسَبة، خاضعة لمفاهيم التطوّر في منظوماتٍ متعالقة ومتفاعلة بصورة لا تنقطع.

إنّ الناظر إلى عمليّة التطوّر هذه لن يجدها تتراءى لعينه بتلك السهولة، إلّا إذا فصل بين المتغيّرات التي تشكّل هذه المنظومات التطوريّة. فالذي يحيا في قلب هذه المنظومات المتسارعة، ربّما سيشعر بالتغييرات من حيث النتائج فقط. أمّا السيرورة فلن يشعر بها، إلّا إذا فصل مثلًا متغيّر الزمن وقارن بين النتائج في فترتين أو أكثر. ولو كنّا نسعى في هذه الورقة إلى البحث الكمّيّ التجريبيّ ونريد إماطة اللثام عن كنه هذا الأمر، لحاولنا **أن نثبت فرضيّتنا القائلة أنّ الزمن، كمتغيّر مستقلّ بمساعدة متغيّراتِ منظوماتِ التطوّر، سيؤثّر على المتغيّر المتعلّق، وهو المفاهيم العامّة**، بحيث سنحاول أن نثبت أنّ كثيرًا من المفاهيم قد تغيّرت بفعل الزمن ومساعدة منظومات التطوّر.

تسعى هذه الورقة إلى الوقوف على دور موقع **التواصل** الاجتماعيّ "الفيسبوك" كنموذج من نماذج **الفضاء العموميّ** في تغيير بعض المفاهيم العامّة وتغيير بعض أشكال **التواصل والاتّصال**، وأثر ذلك على الأبعاد الاجتماعيّة، العامّة والخاصّة.

أثر الثورة المعلوماتيّة في تشكيل المفاهيم العامّة:

[1] ترجمة شبه حرفيّة لموقع التواصل الاجتماعيّ "الفيسبوك"، قام بها الكاتب لحاجة في نفس يعقوب، حتّى يجدَ شرعيّة لاستعمال مصطلح "الوجوه" بما يحمله من تورية. فمعناه **القريب** هو تلك الترجمة الحرفيّة للفيسبوك، ومعناه **البعيد** هو تلك الوجوه المختبئة خلف مواقع التواصل الاجتماعيّ.

[2] نقصد هنا فهم التواصل لدى مستخدميه والسلوكيّات التواصليّة التي ينتهجونها بناء على هذا الفهم الذي أصبح ثقافةً **اتّصاليّة وتواصليّة** ولّدتها هذه الظروف.

لا شكّ أنّ للثورة المعلوماتيّة أثرَها الإيجابيَّ وأثَرَها السلبيَّ على حدّ سواء في مناحي الحياة جميعِها. فلقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة تحوّلاتٍ جذريّةً في تطوير التقنيّات الحديثة، وارتفاعًا ملحوظًا في عدد برامج التواصل بين الناس، بدءًا ببرامج التواصل البدائيّة التي كانت بالكاد توصل الإشارة أو الرسالة، وانتهاءً بالبرامج والمواقع المتطوّرة التي يمكنها نشر مقاطع الفيديو والصور والصوتيّات والبثّ المباشر، وحتّى المكان، بدقّة الأقمار الصناعيّة.

ولقد أمست هذه المواقع ثقافةً متنقّلة ترافق الفرد أينما ذهب، وهي في حضور وجاهزيّة دائمة. فلقد أصبح عالم المرء في جيبه، وأصبح العالم الذي وُصفَ ذات مرّة بالقرية الصغيرة، مجرّدَ بيتٍ افتراضيّ واسع، مقسّم إلى ملايين الغرف، يستطيع أيّ شخص في أيّ وقت أن يطرق باب أخيه افتراضيًّا وأن يتّصل به أو يتواصل معه. وهذه البرامج والمواقع متعدّدة بحيث للإنسان أن يختار ما يشاء منها لكي يصل إلى أخيه الإنسان في أجزاء قليلة من الثانية.

الفيسبوك سيّد الموقف:

حقيقةً، لقد شغلت هذه المواقع، وبخاصّة "كتاب الوجوه" (الفيسبوك)، حيّزًا كبيرًا في حياة الملايين، حيث وَجَد كثيرون منبرًا حُرًّا طليقًا لقول ما يريدون دون رقيب. ولقد كان هذا الموقع أفضل وسيلة يمكن للمرء أن يظهر من خلالها كما ليس على حقيقته. فما إن يظهر ببعض اللباس المغاير للباسه في طبيعته اليوميّة، أو بمجرّد أن يظهر ببعض المقولات الحكيمة، والتي كثيرًا ما تكون منقولةً من مواقع أخرى أو من صفحات أشخاص آخرين، حتّى يبدوَ شخصيّةً متميّزة لها وزنها الثقافيّ والاجتماعيّ، وحتّى يستقطب من حوله جمهورًا خاصًّا به، ما كان ربّما ليهبه تلك الثقة وذلك الاحترام لو عرفه في واقع الحياة وليس من خلال الشاشات.

إنّ موقع التواصل الاجتماعيّ "الفيسبوك" أصبح الموقع الأكثر شيوعًا في السنوات الأخيرة، وذلك بسبب كونه موقعًا **للاتّصال والتواصل** في الوقت نفسه. فلقد لبّى هذا الموقع هدفين **للمتّصلين والمتواصلين**. **فمن جهة**، هو موقع **اتّصال** يتمثّل في خاصيّة التراسُل بين شخصين أو أكثر بامتياز، سواء كان ذلك عن طريق الرسائل الخاصّة أو عن طريق الرسائل داخل مجموعات، كما أنّ هذه الرسائل قد تتضمّن وسائط عالية التقنيّة كالصور ومقاطع الصوت والفيديو. ومن **الجهة الأخرى**، فهو موقع **تواصل** اجتماعيّ، حيث يتيح للكثيرين الوصولَ إلى الآخرين بأفكارهم وبما يدور في أذهانهم وقلوبهم. وهذه الخاصيّة هي التي نجحت في تلميع وترويج كثيرين، وأتاحت المنبر لكثيرين أن يقولوا ما يريدون دون أيّ رقابة أو محاسبة. وربّما يمكن اعتبار هذا الأمر تجسيدًا لمفهوم **الفضاء العموميّ** فيما هو ما بعد الحريّة وما بعد الديمقراطيّة.[3]

ولقد استطاعت هذه الثقافة، ثقافة **التواصل والاتّصال** الافتراضيّين، أن تغيّر الكثير من المفاهيم، الأمر الذي انعكس بصورة واضحة على كثير من السلوكيّات؛ فقد أتاحت هذه الثقافة بالمعنى **العامّ** والمعنى **الخاصّ** سلوكيّاتٍ كانت مستهجَنةً قبل بروز هذه الثقافة. وتغيير المفاهيم الذي بدأ من السلوكيّات الفرديّة انعكس على المجتمع بأسره وجعل مفاهيم كثيرة فيه تتغيّر بصورة جذريّة.

[3] راجع: خمسيّ، عبد اللطيف. 2007. "نحو مقاربة جديدة للديمقراطيّة". رهانات3: 9-7.

الأقنعة:

من أهمّ أدوات الثقافة الافتراضيّة الوسائطُ المرئيّة، وبخاصّة الصور. وهذا الأمر مشتركٌ بين ثقافة التواصل الافتراضيّ وثقافة الصحافة المقروءة والمرئيّة. لكنّ الفرق بين هذه وتلك هو أنّ ثقافة الصحافة تحتاج إلى مهنيّة عالية في التقاط الصور واتّخاذ القرار الصائب بشأن موضعها أو ترتيبها في الخبر أو التقرير، أو في الصفحة المناسبة في الصحيفة أو لحظة العرض في الوسائل المرئيّة. أمّا ثقافة الفيسبوك، فلا تحتاج إلى أيّ مهنيّة. فكثير من الصور تُلتقط بواسطة الهواتف الذكيّة أو غيرها من الوسائل، وبصورة عفويّة، دون أيّ مهنيّة. وهذه الصور تُنشر ارتجالًا على صفحات هذا الموقع، دون أن تُراجَع أو أن يُنظر في مدى تأثيرها أو فاعليّتها. فالمهّم أن تُستعمل كوثيقة لتوثيق الأحداث الشخصيّة والعامّة. وهنا لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة أسهمت إسهامًا واضحًا في تمييع مهنة الصحافة والإعلام، ولا سيّما أنّ هذا الموقع أصبح يتصدّر ظاهرةَ ما يُسمّى "الإعلام الجديد"، التي أصلًا باتت تعاني من انحسار مهنيّ وإبداعيّ بسبب أدعياء يَلِجون بَواطنها دون أن يفقهوا حتّى ظواهرها. فجاء الفيسبوك ليمهّد الأرضيّة لهؤلاء ويجعل من صفحات أعضائه منصّات عشوائيّة تتناقل الأخبار بصورة غير مدروسة وغير مراعية لكثير من القيم والأسس الحياتيّة. فكم من مدّعٍ يحمل هاتفًا ذكيًّا يدور به هنا وهناك أصبح في هذا العالم الافتراضيّ إعلاميًّا لامعًا ومراسلًا معترفًا به!

والأدهى والأمرّ هو أنّ هؤلاء لا يراعون غالبًا مشاعر الناس، فهم لا يتورّعون عن نشر صور مرعبة ومخيفة لحوادث قتل وعنف، فضلًا عن أنّهم لا يحترمون خصوصيّات الناس، إذ قد يقومون بالتقاط الصور للجنائز والجثث والقبور.

ثمّ إنّ هذا الموقع قد جعل **أرضيّة التواصل** جاهزة لكثير من الأدعياء في كثير من المجالات. فها نحن نشهد هرولةً كبيرةً من قِبَل أدعياء الشعر والأدب والفكر والدين والسياسة إلى هذه المنصّة المفتوحة على مصراعيها. ومن السهل في حقيقة الأمر كشف الوجوه الحقيقيّة لهؤلاء الأدعياء، إمّا من خلال أخطائهم اللغويّة والنحويّة الفادحة والفاضحة إن كانوا من أدعياء الأدب، أو من خلال ركاكة وسطحيّة أطروحاتهم إن كانوا من أدعياء الفكر والسياسة، أو من خلال عدم مصداقيّة أقوالهم ومنقولاتهم الفكريّة والعقائدية إن كانوا من أدعياء الفقه والخبرة الدينيّة. لكنْ للأسف الشديد، غالبًا ما ينجو هؤلاء ويمرّون من ضيقِ ذلك المأزق بسلاسة لبعض الاعتبارات المؤسفة، ومنها:

- **عدم خبرة العامّة أو هبوط الذوق العامّ أو ضحالة الثقافة:** وذاك ممّا لا يجعل المتلقّي الفيسبوكيّ ناقدًا حاذقًا لِما يقرأ أو يسمع أو يشاهد؛ فهو يقبل كلّ ما يأتيه من هؤلاء الأدعياء كأمر مسلّم به وكحقيقة لا تقبل النقاش.
- **المجاملات والنفاق الاجتماعيّ:** كثيرًا ما يقوم الفيسبوكيّون بالتعبير عن إعجابهم ببعض منشورات أصدقائهم من باب المجاملة أو بدوافع واعتبارات أخرى. فهنالك الكثير من الذين يقلقهم عدد إشارات الإعجاب التي يحصلون عليها أو التعليقات على منشوراتهم، ولكي تتكاثر إشارات الإعجاب والتعليقات هذه، فإنّهم يضعونها على منشورات ربّما لا تعجبهم أو ربّما لم يقرؤوها أصلًا؛ فهي ليست أكثر من عمليّات تبادل ومجاملة كما يتبادل الناس الهدايا والمشاركة في الأفراح والأتراح من باب الواجب الاجتماعيّ ولو على مضض.

وكذلك، على المستوى **الاتّصاليّ** مهّد الفيسبوك **الأرضيّة الاتصاليّة** ليُسْهِم في تغيير الكثير من المفاهيم الناتجة عن تغيير السلوكيّات الفرديّة، والتي انعكست على المجتمع عامّةً.

- **من وراء حجاب مضاعف:** هنالك ظاهرة من الأسماء المستعارة التي تعبّر عن أصحابها ومشاعرهم ونواياهم. فقد تشير هذه الأسماء إلى الذكورة أو الأنوثة، وإلى الحزن أو الفرح وغيرها من الأمور. وأصحاب هذه الأسماء يتواصلون فيما بينهم، أو مع أصحاب أسماء حقيقيّة. وهذه الأسماء المستعارة تخلق **حجابًا إضافيًّا**، بالإضافة إلى ذلك **الحجاب الافتراضيّ الطبيعيّ**، فتسهّل عمليّة التعمّق في التراسل والمحادثات.
- **الاتّصال عن بعد وبمجموعات وانحسار المفاهيم العاطفيّة:** تتيح هذه الخاصّيّة **الاتّصال** بين أبناء الأقطار المختلفة، فبعد أن كان من باب الحلم أن يتّصل شخص ما بشخص آخر في دولة أخرى بعيدة، بات **الاتّصال** قريبًا سهل المنال ومجّانيًّا. وكذلك إنّ إمكانيّة بناء مجموعات مغلقة أو مفتوحة تتيح **الاتّصال** بين الأشخاص لهدف ما. وهذا الأمر قد غيّر الكثير من المفاهيم الاجتماعيّة. ورغم تسهيله الأمورَ، فإنّه يحمل في داخله لونًا من الجفاف العاطفيّ. فلو كان شخصٌ ما يدرس خارج بلاده، على سبيل المثال، وأخوه يدرس داخل المدينة، لاشتاق الأبوان ربّما إلى الذي يدرس في المدينة نفسها أكثر من ذلك الغريب، لأنّه يتواصل معهم بصورة شبه يوميّة وبالصوت والصورة، بينما قد لا يريان ابنَهما القريب إلّا قليلًا.

القيم الديمقراطيّة وما بعد حرّيّة التعبير:

حرّيّة التعبير هي من الحرّيّات المكفولة ديمقراطيًّا -على الأقلّ من حيث النظريّة-، على أن تكون في إطار عدم إيذاء الآخر. فحرّيّة الفرد تنتهي عند حدود حرّيّة الآخر. ولقد أتاح الفيسبوك مساحات شاسعة للفرد للتعبير عن رأيه بطريقة أكثر حرّيّة من الطريقة الوجاهيّة. بل إنّ الإنسان باتَ يستطيع السبّ والتشهير واستعمال لفظات بذيئة على صفحته الشخصيّة ضدّ شخصيّاتٍ عامّة أو ضدّ أشخاص عاديّين. علاوة على ذلك، بعد أن كان الإنسان يخافُ أن يتحدّى مَن هو أكثر قدرةً منه في مجال ما، أصبح قادرًا على الردّ عليه بأيّ صورة كانت. وكثيرًا ما تصل هذه الردود حدود السباب والإسفاف. وفي أسوأ الأحوال يحظى هذا أو ذاك بحظر فيسبوكيّ من الطرف الآخر. وهذا نابع من تلك التفاعليّة التبادليّة المستمرّة بين عدد من العناصر التي يمكن اعتبارها في الوقت نفسه عناصر مؤثّرة على بعضها، ومتأثّرة من بعضها، تأثيرًا وتأثّرًا لا يتوقّفان أبدًا.

- **عدم المواجهة الفعليّة:** إنّ كون المرء خلف حجاب، لا في حلبة المواجهة الفعليّة، يؤثّر في أنّه يمكن أن يقول ما يريد دون أن يحاسَب حسابًا مناسبًا. لذلك نجد كثيرين يقولون ما يريدون، وبالصورة التي يريدون، ولو كانوا في مواجهة حقيقيّة لأخفوا معظم ما يكتبونه على صفحاتهم أو تعليقاتهم.
- **التركيز وعدم المباشرة وإمكانيّة الإمعان والتفكير:** حين يقرأ إنسان ما مادّةً معيّنة أو يُشاهدها أو يستمع إليها، ويطلب منه التعليق عليها فورًا، قد يقع في بعض الأخطاء، أو قد يغفل بعضَ ما أراد أن يقول، ثمّ يندم على عدم إعطائه المسألةَ حقّها. لكنْ، حينَ يقرأ مادّة ما في الشبكة العنكبوتيّة أو الفيسبوك، ويريد الردّ عليها في منشور أو تعليق، يستطيع أن يقول كلّ ما يريد بصورة مدروسة وبعد تفكّر وقراءةٍ ثانية وثالثة وتأمّل وحسابات دقيقة للأفعال وردود الأفعال، ممّا يسهّل عمليّة الردّ ويجعلها أكثر إشباعًا "لشهوة" التعبير عن الرأي.
- **الفيسبوك كأداة للتفكير بصوت مرتفع:** لقد أصبح الفيسبوك منبرًا شاملًا وأداةً للتعبير حتّى بطريقة التفكير بصوت مرتفع. فكثيرًا ما يعبّر الأشخاص عمّا يجول في خواطرهم، أو يخالج صدورهم، أو يعتري أجسادهم من

مرض أو غيره. بل إنّ كثيرين يعبّرون عن أشكال موائدهم ومحتوياتها وأثاث بيوتهم وألعابهم وأوقات فراغهم، كأنّهم يريدون أن يشركوا الجميع لحظةً بلحظةً في كلّ ما يدور في حياتهم. وهذا ينطبق أيضًا على السياسة والاقتصاد والفكر وغيرها من الأمور. وهذا يتبدّى في الأحداث الموسميّة أيضًا. فمن السهل أن نجد النقيض ونقيضه على صفحات الفيسبوك في مواضيع موسميّة كالانتخابات والأحداث المختلفة، وحتّى في أمور غير موسميّة. فالتناقضات السياسيّة والدينيّة والفكريّة وغيرها، كلّها تبدو جليّة على صفحات الفيسبوك.

هذه الأمور وغيرها هي التي تشكّل تلك الثقافة "الوقحة" للتعبير غير المحدود وغير المبرّر وغير المنضبط وغير الـمُراعي لكثير من المشاعر. وكما ذكرنا، هذه الأمور تتفاعلُ تبادليًّا وبصورة مستمرّة بينها فتؤثّر على بعضها وتتأثّر من بعضها. فلو أخذنا قضيّةً سياسيّة، كقضيّة الانتخابات مثلًا، لوجدنا أنّ بُعد الشخص عن الساحة الفعليّة واختباءه خلف حجاب الفيسبوك، ووجوده في وضع يسمح له بالتأمّل والمراجعة، وإتاحة المنبر لكي يعبّر عمّا يفكّر فيه بصوت مرتفع، هذه كلّها تحقّق معادلة التوازن بين منشود التعبير وموجوده المقبول. فالشخص يحدّد أطراف المعادلة وفقًا لهذه المعايير، ويُطلق تعليقه أو منشوره خاضعًا لها. فمنهم مَن يريد الحفاظ على مركزه الاجتماعيّ وصورته المجتمعيّة فيضبط معادلته قليلًا، ومنهم مَن ينضح بكلّ ما فيه من إسفاف لا يُراعي أحدًا ولا قيمة، ومنهم مَن يتلاعب بالوتيرة العالية أو المنخفضة بحسب هدفه السياسيّ أو الاجتماعيّ أو الاقتصاديّ، أو بحسب قدرته على المواجهة الافتراضيّة أو الفعليّة إذا لزم الأمر.

الخلاصة:

حينَ كنّا في المدارس الابتدائيّة، كان يراودنا حلمٌ جميل وشعور بالقوّة والسلطة، حين كان معلّم الجغرافيّة يدخل إلى الصفّ ومعه مجسّم الكرة الأرضيّة. كُنّا ننظر إلى ذلك المجسّم فرحين. فنحن نضع الأرضَ جميعًا بين راحتَيْ يدينا، نديرُها أنّى شئنا، وفقَ اتّجاه عقارب الساعة أو بعكسها، وننقلها من موقع إلى آخر، كأنّها مستقلّة عن المجرّة والمنظومة الكونيّة كلّها، أو كأنّها ملْكٌ خاصّ لنا. هذا الأمر على ما يبدو تحقّق اليومَ بمفهومه الافتراضيّ وبشكله الإلكترونيّ. فقد باتت فرحةُ الطفل بمجسّم الكرة الأرضيّة في درس الجغرافيّة تعادل فرحة الإنسان المعاصر الافتراضيّة بوصوله إلى حيث يريد أو الحصول على ما يريد من معلومات في أجزاء من الثانية.

باتت المنظومات الكونيّة أقرب إلى الإدراك المؤدّي إلى الجهل. فبقدر انكشافنا على مكنونات العلم، نعرف كم نحن جاهلون. فلقد خَبِرْنا أنماطًا كثيرةً **للتواصل والاتّصال**، غيرَ أنّنا لم نفقه بعدُ أبعادَها الفلسفيّة. فحتّى الفلاسفة، على ما يبدو، باتوا يتخبّطون في بناء منهجيّة واضحة في تعريف **الفضاء العموميّ** وعلاقته بمنظومات **الاتّصال والتواصل** أيًّا كانت. فنظريّة **الفضاء العموميّ** تسعى إلى توطيد هذا المفهوم وترسيخ أسسه، لكنّها تُخفق -في رأيي- كثيرًا، حيث إنّها **تختارُ معطفًا فلسفيًّا فضفاضًا، تريدُ أن تلبسه لقزم التعريف الاتّصاليّ والتواصليّ.**

ولقد استطاعت الثورة المعلوماتيّة أن تتمخّض عن أجنّة عملاقة، ليس فقط بحجم هالة الدهشة التي يقف عندها المرء مشدوهًا لا يملك لها تفسيرًا، وبخاصّة ذلك الإنسان الذي عاش على جلده الشوق والانتظار والمعاناة من وصول الرسائل البريديّة متأخّرةً أو عدم وصولها، وأحيانًا خسارة أمور جوهريّة، بل أيضًا بحجم ذلك التغيير في

المفاهيم. ذلك التغيير الذي أوجد فجوة شاسعة بين المفاهيمِ القيميّة الموروثة، والتي تحاول "الزجّ" بالإنسان "المعاصر" في "سلاسلها النفسيّة"، وتلك المساحةِ غير المحدودة في ذلك **الفضاء العموميّ** الذي بات يتيحُ كلّ شيء ويشرعنه.

كلّ ذلك خلق مجتمعًا ذا قيم مغايرة، قد تبدو لحاملي نواميس العادات والتقاليد والدين مشبوهةً أو مستهجَنةً، لكنّها باتت مقبولةً عندَ مَنْ رضعوا مفاهيم الحداثة من ثديها الافتراضيّ، ومن فلسفة الديمقراطيّة الفضفاضة الغائمة المستمَدّة من ذلك **الفضاء العموميّ**. فهي عندهم واقع مقبول، عليه ترعرعوا واقتاتوا. فهم الذين لم تتلطّخ أيديهم وهم صغار بوحل الأرض وترابها، بل إنّ أصابعهم لم تتعرّف في واقعهم إلى أكثرَ من شاشات أجهزة اللمس بحروفها ورموزها وثقافتها الافتراضيّة، وعلى ما يبدو، **فإنّ ذلك المعطف الفلسفيّ الفضفاض لتلك الثقافة القزمة لم ينجح في ستر سوءتها وأخفق في تغطية عيوبها.**

- **د. مسلم محاميد شاعر واديب وباحث اكاديمي**